الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ يوليو سنة ١٩٤٩ — ٥ رمضان سنة ١٣٦٨

[illegible]

والامبراطورية البيزنطية

أ — تمهيد

في سنة ٥٣٤ ثم في سنة ٥٥٥ من الميلاد ، استطاع قوّاد الامبراطور البيزنطي وجيوشه ، أن تقضي على مملكتي « الوندال » [1] والقوط الشرقيين [2] كما اغتصبت جزءا من شاطئ إسبانيا من القوط الغربيين [3] . لهذا كان درس الأحوال التي قامت في القسطنطينية في ذلك العهد ، وبخاصّة في عصر « يوستنيانوس » ، أعظم أباطرتها ، من أخص ما يعنى به دارس التاريخ ، ومن أوليات ما ينبغي أن يكون موضع عناية أولئك الذين يدرسون أوربّا في القرون الوسطى .

في سنة ٥١٨ ميلادية انتهى حكم « أناستاسيوس » [4] ، وكان حكماً مضطرباً غير مستقر ، مملوءا بالقلق ، ساورته الاضطرابات في مقرّ الملك وفي خارجه ، وشهدت فيه القسطنطينية كثيراً من الشغب ، وثار فيه « الأزرقيون » ، [5] ووقعت حرب مع الفرس في الشرق ، وانشعب فيه الناس شيعاً وشدائد دينية أثار غبارها رواية الامبراطور لأخذه بمذهب الوَحْدِيطَبَعِيَّة [6] .

والوَحْدِيطَبَعِيُّون هم القائلون بأن للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية وكانت هذه النظرية ذائمة في الشرق ، فسببت كثيراً من الاضطراب ، لأن الشرقيين ،

(1) Vandals (2) Ostrogoths (3) Visigoths (4) Anastasius (5) Blue Factions
(6) Monophysitism

حتى الطبقات الدنيا من مجتمعهم ، وكانوا يأخذون بضلع في المناقشات اللاهوتية . وعلى الجملة فإن « أناستاسيوس » قد خلف تركة مثقلة بالهموم .

عند موت « أناستاسيوس » ارتقى عرش الأباطرة الشرقيين جندي هرم من المتمسكين بالنصرانية على صورتها السُّنِّيَّة[1] (الأورثودكسية) ، هو الامبراطور « يوستين »[2] فرحبت به البابوية ووثقت بنواياه . وكان أميًّا ، وقلما يعرف من القراءة شيئاً ؛ حتى لقد كان يتخذ عوضاً يرسم اسمه على غراره ، إذا أراد التوقيع ؛ ونذر أن يعرف شيئاً من شئون السياسة . أما الحاكم الحقيقي فخلال تسع السنوات التي ملك فيها ، ثم في خلال ثمانية وثلاثين سنة من بعد ذلك ، فكان الإمبراطور « يوستنيانوس »[3] وهو من ذرى رجله ، تلقى من العلم أوسع ما يدرك من العلم في عصره ، وتدرَّب في السياسة . وفي سنة ٥١٨ ميلادية ، كان قد بلغ السادسة بعد الثلاثين من عمره . ولقد قال فيه المؤرخ الانجليزي النابه « إدورد جبون » قولة حق ، إذ أضاف أن « يوستنيانوس » لم يكن مجرد الحذاقة فقط » . وعاش حتى بلغ الثالثة بعد الثمانين . وكان فاتر المزاج عصبيًّا ، نزاعاً إلى الجد عن أنس ، بسيط العادات ، زاهداً عفيفاً .

قال فيه أحد معاصريه : « لم يكن ينعس الجبان ولا ضئيله ، متناسب الأعضاء ، يميل الى الزيادة منه الى النقص . أما وجهه فمستدير جذاب . وكان صافي اللون ، غير ما يكون أديمه صفاء ، عند ما يجلس يرمي كاملين عن الطعام .

كان محبًّا للنظام والتدبير في الأمور على قواعد مرسومة ، ذا قدرة فائقة في التعمق في دقائق الأشياء وتفاصيلها ، شأن كل العظماء من رجال الإدارة . وهو أشبه الرجال بالإنجليز من حيث الإكباب على العمل مع قليل من النوم ، والبغض الشديد للكسل والاسترخاء . وجُلُّ اهتمامه الذاتي الى كل إدارة من إدارات الحكومة ، وأكبُّ على درس مشاكل الدولة .

كان قادراً على ضبط نفسه ، وتكبير مشاعره وأغراضه . أما مظهره فكان يعتبر تحقيقاً لتطلعه إليه نفسه من القوة الفائقة والثبات على غايته . ولقد خُبِّرَ أن قدرته التحليلية كانت ترجح بضعف في المواقف الحرجة ، وأنه في قرارة طبعه كان من ذوي المواهب العقلية أكثر منه رجلاً من ذوي المواهب العملية . ومع هذا فإن تاريخه يتمّ بوضوح عن أن أعماله كانت ميسَّرة في الأكثر بسياسات مرسومة الحدود مضبوطة القواعد ، وبمبادئ ثابتة لا يتحوَّل عنها ولا يخرج عليها . ولم يكن هنالك من شيء يضطره الى الارتداد ، والتنزح بين الإقدام والإحجام إلا ضغط ظروف خارجة عن إرادته .

(١) Orthodox (٢) Justin (٣) Justinian

منذ بداية ... في الأعمال ... التي ... الى أن يكون من عظام الأباطرة فنجح وبلغ غايته ... وقد اغتصب ... من مارك انطوط انشرقيين مدينة «رافنا» (١) حيث مرقد «غلا بلاسيديا» (٢) و«ثيودوريك» (٣) فترى هنالك حتى اليوم صوراً رسمية لسيد الأكبر «يوستنيانوس» مع الامبراطورة «ثيودورا (٤)»، صُوِّرت على القاشاني الفخم في أثناء ملكه.

إن الأحوال التي رسم «يوستنيانوس» معالمها، قد اضطرته الى الاستعانة بعدد من الوكلاء ذوي الكفايات. ولقد كان سر الحظ في العثور عليهم، أو بالأحرى كان حكيماً في انتقائهم، كان ... من «بليزاريوس» و«الخصي» نارسس» (٦) قائدين عظيمين، وكان ... من «أنثيميوس» (٧) مهندساً ماهراً أشرف على إقامة المنشآت والمباني العامة، أما «تريبونيانوس» «إطريونيان» (٨) المشترع الفقيه الذي يرجع اليه الفضل في كل أعمال التشريع ... في عصره، و«يوحنا الكبدوكي» (٩) وهو من رجال الأسرة الامبراطورية ... في المسائل المالية.

أتم «يوحنا» بوسائل السلف بتزويد «يوستنيانوس» بالمال الذي تحتاج اليه مشروعاته العظيمة. واتهم «إطريونيان» بالرشوة والاتجار بالعدل، غير أن «يوستنيانوس» كان يثق به ثقة عمياء. إن «إطريونيان» تأكل قلبه الغيرة، حتى من أخص أتباعه، والمقربين من رجاله. أما «ثيودورا» زوجه القادرة المفيد، فكانت من أعظم من استعان بهم من عقدي ذوي الرأي، ومن أمجاد عصره ظهور المؤرخ الكبير «بروكوبيوس» الناموس الملازم للقائد «بليزاريوس» فقد وضع كتاباً في حروب «يوستنيانوس» وفي منشآته المدنية، مما زاد في قدره وأعلى من مكانته.

غير أن «بروكوبيوس» الى جانب هذا، كتب تاريخاً سرياً لذلك العصر، وصف فيه «يوستنيانوس» بأنه الشيطان مجسماً، وإن حكمه كان سلسلة متصلة الحلقات من الجهل والأنانية والجريمة. على أن في هذا الكتاب غلواً وتطرفاً واضحاً يظهر بيناً في مثل قوله: «إن ما أصدر «يوستنيانوس» من أوامر تقضي بالقتل، قد فاقت من حيث العدد، كل ما صدر من أشباهه في جميع العصور». وأنه «كان لغير مال، فلم يكن يسمح لغيره أن يكون ذا مال» ... «ثيودورا» زوجة «يوستنيانوس» كما وصف زوجة «بليزاريوس» فتلك إنهم ... أحس النماذج النسوية. ولكن من جانب هذه الافراطات، يمكن أن نستشف بعض الحقائق المؤيدة بقرائن المنطق.

(١) Ravenna (٢) Galla Placidia (٣) Theoderic (٤) Theodora (٥) Belisarius
(٦) Narses (٧) Anthemius of Tralles (٨) Tribonian (٩) John of Cappadocia

٢ — الامبراطورة ثيودورا

قيل إن « ثيودورا » كانت ابنة حارس الوحوش في « الهيبدروم »[1] وأنها كانت وقتاً ما من شبابها ممثلة لعوباً عملت في مسارح القسطنطينية. وبعد أن ارتادت الشرق، عادت الى العاصمة الكبرى شخصية مهذبة أصلحتها المخاطرات وشذبت قتادتها المجاورات. على أن هذا القول مشكوك فيه بعض الشيء.

وقع « يوستنيانوس » في حبائل غرامها، فتزوج منها في سنة ٥٢٣، وشاطرته مسئوليات الحرس من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٤٨؛ ويقال ان سلطانها عليه في الشئون السياسية والدينية كان قوياً بالغ الأثر.

يقول « فروقوبيوس »: كان لها « وجه مفرط الحسن. وبالرغم من أن جسمها كان صغيراً فإنه كان في أقوم صورة وأسوى تركيب. أما بشرتها فلم تكن الى البياض الصرف بل الى التورد الخالص. كانت عيناها مفرطتا اللمعان في الحركة، بحيث تستطيع أن تحولها في ألف اتجاه في لحظة واحدة ».

ثم يقول إن يوستنيانوس وثيودورا كانا يتقاسمان سياسة التظاهر بالاختلاف في شئون الدولة فيظاهر كلٌّ منهما حزباً في حين أنهما كانا يعملان ويدبران في قفار واحد، ويشتبكان بعضهما لبعض بواطن نصرائهما بكل صراحة، فاستطاعا بذلك أن يقفا على أسرار خصومهما والظاهر أنهما قد حلقا متسيين أحدهما لصاحبه، مهيأين ليكونا نفساً واحدة في جسمين. وفي حين كان « يوستنيانوس » اليقظ يمضي الليل بطوله مستيقظاً في جوانب القصر، كانت « ثيودورا » تمضي الغط في نومها حتى منتصف النهار. كان من الهين أن ترى الامبراطور؛ أما هي فكان من أشق الأمور أن تمثل في حضرتها. لا يكاد « يوستنيانوس » يمد يده إلى طعام أو كأس شراب حتى يتشاغل عنهما بمهام الدولة. أما ثيودورا فالثروة تكاد تغادر فراشها إلا لتستحم. ثم ترتد إلى سناها الهادئة، حتى إذا كان وقت الغداء أو العشاء، عكفت على شتى أنواع اللحوم خاصة، وبوفرة غير مألوفة.

٣ — سياسة يوستنيانوس

إن الأشياء الرئيسة التي رمى « يوستنيانوس » الى تحقيقها، تنحصر في الآتي:

(١) إن يجعل سلطة الامبراطور مطلقة.

(٢) ان ينحي الانشقاق مع البابوية وان يحتفظ بالوحدة الكنسية وبالأرثوذكسية.

---

(١) Hippodrome

(٣) ان يعيد للامبراطورية ممتلكاتها في الغرب ، وان يحيي الامبراطورية الرومانية

(٤) ان يؤمّن الامبراطورية القائمة (البيزنطية) من أن تهاجم باتباع سياسة كيسة مرنة تتفادى الهجوم ، فيعيد بناء الحصون القديمة ويقيم غيرها في شبه جزيرة البلقان وفي جميع أنحاء الشرق ، ويتجنب الحرب مع الفرس ومع الهجوم أطول زمن ممكن .

(٥) ان يصلح الادارة الامبراطورية ، وان يؤسس حكومة قوية حازمة .

(٦) ان يتم العمل الذي بدأه الامبراطور « ثيودوسيوس » الثاني [1] في سنة ٤٣٨ في القانون ، وان يصب القانون الروماني في قالب كامل دائم .

(٧) ان يكون من عظماء البناة ، كما كان كبار الأباطرة من قبله .

استطاع « يوستنيانوس » أن يرفع من مركز الامبراطور ، فجعله أسمى مما كان في جميع العصور . فقد قلّد « ديوقلطيانوس » [2] في اقامة بلاطه وتنظيم رسمياته ، وفي استخدام الألقاب ذات الرنين والطنين . أما مراسيم الدولة فكانت تصاغ في لغة بالغة منتهى الطرح والغطرسة . فاذا مثل أمامه أحد سجد وقبل قدمي السيد « يوستنيانوس » . ومع هذا فان « بروكوبيوس » يقول في تاريخه السري ، بأنه كان قريباً من الناس والوصول اليه سهل هين ، وانه لم ينكر على أحد أراد الاتصال به حق التحدث اليه والمثول في حضرته ، وانه كان حسن الالقاء جم الأدب . وفي الواقع أن أموراً كثيرة من أمور الدولة حصرها « يوستنيانوس » في يد الحكومة المركزية ، فزادت المشاغل والمهام التي تقع عليه أكثر مما كانت في أيام غيره من الأباطرة السابقين .

كان من أول مهمات « يوستنيانوس » أن يسوس جماهير القسطنطينية المشاغبة الجامحة الى الانتقاض والثورة ، وهي مهمة من أشق المهمات التي شغلت الأباطرة من قبله . ومن أجل أن يتقرّب من الغوغاء أنفق في سنة ٥٢١ ما يقرب من ثلاثة أرباع مليون من الجنيهات على الاستعراضات والملاعب العامة . وكان « أناستاسيوس » قد حظّر مجالدة الوحوش ولكن « يوستنيانوس » أجازها . وبالاضافة الى أجازته مجالدة الناس للوحوش والترخيص للناس بشهود مسارح التمثيل التي وسم أحدها بسمة بغيضة إذ سمي « المومسات » ، فإن أهلية أهل القسطنطينية المحبوبة كان سباق العربات وكانت تقام كل يوم أحد في حلبة السباق (الهيبودروم) الكبرى حيث كان يشهدها ثلاثون ألف رجل ، لأن شهودها كان محظوراً على النساء . وكان المشاهدون ينتمون أحزاباً بحسب ألوان الشاب التي يلبسها المتسابقون ، ويحتل أهل كل حزب أمكنة خصصت لمختلف الألوان . ومن هنا نشأ الحزبان العظيمان حزب الخضر وحزب الزرق اللذين اقتسما المدينة ، وتطرفا في

(١) Theodosius II (٢) Diocletian

منافساتهما حتى النداء ثم الاعتداء . على أن الخزبين قد استطاعا ، في بعض المناسبات ، أن يسبطا بصبغة سياسية . وكان « أناستاسيوس » يناصر الخضر ، في حين أن « يوستنيانوس » و « ثيودورا » كانا يناصران الزرق . فإذا انتصر أحد الحزبين في سباق أقيم في الحلبة احتفال عظيم تحية للمنتصرين . كذلك كان الامبراطور ممن يشهدون السباق في أكثر الأحيان ، فينتهز الشعب هذه الفرصة السانحة ويتقدم إلى الامبراطور معبّراً عن مشاعره . وكان الامبراطور يقابل في العادة بالهتاف ، ولكن كان يقابل بعض الأحيان بالصفير ، أو تتخذ مقصورته هدفاً لقذائف السلاطة والسُّنَّة أو عرائض الشكوى من سلوك الحكومة . قد يحدث شغب بالغ ، اذا لم يكن في داخل الحلبة ، ففي شوارع المدينة .

وفي سنة ٥٣٢ غضب الخضر والزرق على حاكم المدينة وطلبوا عزل « إطربونيان » و « يوحنا الكبدوكي » بل ان ذلك لم يكف لارضائهم . فلما جردت عليهم الجنود ، رجموهم الى القصر الملكي عشرة ، وأشعلوا النار في المدينة . واضطر « يوستنيانوس » أن يناشدهم التعقل والاخلاد للسكينة في الهبرذروم ، ولكن الجمهور الهائج رفض أن يثق بوعوده وأعلن تنصيب امبراطور آخر . ولقد أخذ « يوستنيانوس » الفزع والخوف حتى لقد فكر في مغادرة المدينة . ولكن « ثيودورا » خطبت مجلسه الخاص خطبة عبرت عن منتهى الاقدام والشجاعة ورفضت أن تفر ، وأهابت بزوجها قائلة : اذا أردت أن تنجو أيها الامبراطور فان لدينا المال والسفن ، وهذا البحر الذي أمامك ولكن تأمل قليلاً لعلك اذا فررت وخيون بنفسك لا تعود تفضل الموت على النجاة . أما أنا فأظن أن الامبراطورية ثوب جميل يدفن المرء فيه »

ولقد فعلت هذه الكلمات في الرجال فعل السحر فصمموا على القتال والصمود للثورة .

خرج القائد « نرسس » محاولاً أن يستميل بعض الزرق بالمال ، كما خرج القائدان « بليزاريوس » و « موندوس » [1] بفرق الهمج المسترقة ، وأخذا يذبحان بقسوة جمهوراً احتمى بالهبرذروم . وتعالت الصيحة من جانب الجمهور « استظهروا عليهم » فسميت هذه الثورة التي ظلت تضطرم ستة أيام بثورة « نيكا » [2] أي النصر . ولقد سمح « يوستنيانوس » بإقامة الألعاب في الحلبة سنين من بعد ذلك ، وأصدر لوائح عدة تضمنت أوامر ادارية من شأنها أن تحفظ النظام في المدينة ، وتجعل الحياة فيها أكثر رتابة . غير أن سلطان الزرق والخضر ، قد عاد قبيل موته الى ما كان عليه قوة وعنفواناً .

[يتبع] اسماعيل مظهر

(1) Mundus (2) The Nika Riot : the personification of Victory, and Victoria, by the Romans, the goddess of Victory. Class : Dict. 60